العالم الشعري عند الأميري من خلال

" ألوان طيف "

(1)

عمر بهاء الأميري

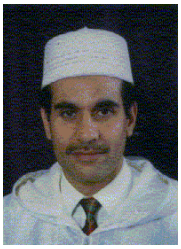

سعيد الكرواني

أما قبل، فلقد قلت لنفسي:

ما العنوان الذي أدبج به هذه الدراسة؟ ثم ماذا أختار من شعره الرقراق؟! فأصابتني الحيرة مرتين:

الأميري نسيج وحده؟! مع أمير الشعراء؟! الأميري شاعر الإنسانية المؤمنة؟! الأميري شاعر على السجية؟! الأميري الابن؟! الأب؟! ماذا أختار؟!

وبعد طول تأمل، ظهر لي، بما أن أكبر عدد ممكن من دراسة شعره يحتضنه ديوانه "ألوان طيف ". أن أقترف هذه المغامرة. كيف لا؟! وبهاء الدين يقول بذات الصدد: " ألوان طيف " ثاني ديوان أنشره بعد " مع الله " ، خمسون قصيدة في فنون مختلفة(1) (...) بدأت أقول الشعر وأنا طفل في التاسعة! وأحرقت ديواني الأول وأنا ابن اثنتي عشرة، واجتمع لي منذ ذلك

الحين، حتى شارفت الخامسة والأربعين، عشرون ديواناً لم أنشر منها بعد إلاّ " مع الله "! وهو الجانب الإلهي من شعري، وفي مقدمته ذكرت: " قيل لي: هلا بدأت بنشر شعرك؟! قلت:

أبداً.. لا.. لماذا؟! أبداً.. متى... وبماذا؟! أصداء طفولة بواكير الشباب قصتي مع الشعر مع الله في بلادي أنين وحنين صراع خماسيات مع القاضي الزبيري (2) رجال وأشباه عواطف وعواصف جمال وهوى الموؤودات أفانين ألوان طيف؟! قلت أبدأ "مع الله "، ولكنني إن فعلت أخشى شبهة النفاق، فما كل شعري " مع الله "، ولقي ما لم أتوقع له: حفاوة في عوالم العرب والإسلام والاستشراق! وعقوقاً في وطني الصغير " سورية "!! وكان الذي توقعت، فقد تلقاني قراء الديوان ونقدة الأدب غير ملتفتين إلى ما ذكرته في مقدمته على أنني " صوفي كبير" !" شاعر إلهي " ! " نسر هابط في ظلال المحاريب "!! ، ويا ليتني كنت كذلك! إنه مقام سام أصبو إليه، ولا أقدر عليه، فإنني عنه رهين، رهين أغلال الحمأ، وأوصاب الحياة، ولأواء الظمأ الإنساني، في نفس شاعر، أريد تسامياً، فأظل أرنو إلى الجوزاء، في كبد السماء، وأصفو، والكدورة في كياني، ألست جبلت من طين وماء؟! إنني إنسان، إنني " فنان "، إنني ألوان، " ألوان طيف ".(3)

إن ذلك كله، هو الأميري، وما الأمر إلاّ لتواضعه المنبجس من شموخ الإسلام العظيم... وهكذا ينبغي أن يكون، وإلاّ لما استحق كل ما استحق.

عزمت إذاً على الخوض في " ألوان طيف " لقيمته الفنية، وكثرة قصائده التي تكفي لمعرفة الفضاء الشعري عند الأميري، وهو يقول في هذا الشأن كذلك:

" وصلني مزيد من الدراسات والتعليقات على ديواني " مع الله " وكلها تردد " الصوفي الكبير" والشاعر المتأله " فأخذني رهب "، من ثقل هذا الاسم!! وبدا لي، أن أترك:"أبوة وبنوة" للأقدار التي أبطأت به لا سيما أنه لون واحد من شعري وأن أبادر إلى نشر ديوان يعطي عني صورة مستوفية، أو تكاد تقرب حقيقتي للناس كما أنا... لا كما يظن بي، أو يراد لي، وهكذا كان ظهور ديوان " ألوان طيف "(4)، فالحمد لله، لقد طابق اختيار الدراسة كذلك الصورة التي أحب الأميري رحمه الله أن تتشكل في أذهان القراء الكرام، فكان العنوان وفق ذلك ما قد علمت.

وحق للأميري أن يطلعنا على تجربته مع الديوان، لأنه مهما تحدث الناقد وتحدث، فلن يبلغ ما أراد الشاعر بالتمام والكمال، أما الاستثناء فيثبت القاعدة ولا ينفيها، ونذكر هنا بابن جني مثلاً ومعرفته بأشعار المتنبي أكثر من الشاعر نفسه باعترافه.

" اصطنعت في " جبل الأربعين"(5) رأس "أريحا" (6) المشرئب بيتاً تصطاف فيه الأسرة، وأتخذه دار عزلتي، ألوذ به من وعثاء الزمان، و" منغصات العيش في حلب"! خلساً من خريف.. أياماً من ربيع أَفْرُغُ فيها لذاتي، طلقاً من إسار الناس، أعد لنفسي أبسط الطعام أحيا على السجية، وأنطلق مع الشعر " هو في غربته يأنس بي... وأنا في لحنه أشكو الدنى"، أسرح ولا أمرح! أجعل الخبز فتاتاً في دروب النمل، أنقذ الفراش من شباك العناكب، أستمتع بتأمل العصافير، تختلس أثمار شجري بنهم، وتغرد في نشوة، أتسلى بالقطة الشرود والمستوحشة،أهلّها بري، فأخذت تأنس بي وتهر لي، تثب إلى حضني، تنطح يدي، وتلعق أصابعي:

والـــهرة الشعراء تنطحني	وتـــمـــد أيديها على ركبي
كـــســـلـــى تشم أناملي ملقاً	وتـــموء في رفق وفي أدب
وتـــعـــضـــها هوناً وتلعقها	ولـــسانها كالمخمل الزغب
وتـــعوق خطوي في تدللها	وتسير إما سرت في طلبي
فإذا جلست جثت على قدمي	والرأس معكوف على القدم

(شبح الخريف 300/301)

في وحدتي

في وحدتي حتى الفراشة خـــلـــفت خدي وطارت
ورمـــت بـــهيكلها على بـــلـــور نافذتي ودارت
فـــفـــتـــحتها حتى تطير ولست أدري أين صارت

(178 - 177)

ألتمس في الزهر والشجر وفاء وصفاء أفتقدهما في البشر:

في غلق

وصـــحـــاب فـــي جـــدال ومضي غير صائبْ(399)
فـــإذا واتـــتـــهـــم الأيـــام فـــالـــربـــان سائبْ(400)
ضـــــل مـــن يـــأمـــل أن يقهر باللغو المصائبْ(400)
خـــاب في الناس اعتمادي ومـــضـــائـــي غير خائبْ
كـــلـــمـــا بـــادر بي عزمي إلـــى شـــم الـــمـــطـــالبْ
ردنـــي صحبي إلى مرتهني مـــن غـــيـــر صـــاحـــبْ
فـــحـــيـــاتـــي غـــلـــق في غـــلق، والدهر دائبْ(401)

في هذا الزمان حيث تبحث عن الخلان لتجد الخذلان، وصدق الإمام علي كرم الله وجهه:

وما أكثر الإخوان حين تعدهم ولكنهم في النائبات قليلُ

ولكن، ليس هذا الأمر غريباً في هذا الواقع الغريبحيث صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً إذا انكفأ الميزان:

يا رحمة الله

نـــعـــيش في عصر موازينُه فـــي الـــحق قد آلت إلى ضده
هـــزالـــه أفـــعـــل من عزمه وهـــزلـــه أمـــثـــل مـــن جده
أمـــا أخـــي واحـــد في الدنى يـــحـــبوك ما تحبوه من وده؟
قـــد تـــعب الحر، وأعياه في دنياه، ما يعجز عن عده(425)

لاشك أنه شعور حاد حين يتنكر لك الأصحاب، لايعرفه إلا من ذاقه..

" أصنع بالأوهام من هيولى الغمام عرائس الأحلام، أملأ من أعناب الإشراق دنان الآفاق، وأشارب بنات الأذواق سلاف الأشواق، أبكي بدمع الغروب الحزين، وأفتر مع الفجر البسام، وقد أرسل من القلم، مداد ألم، وأخط في السطور بوارق سرور، أسكب المشاعر شعراً من كيان حيران بين أنى وكيف!! في أشكال وألوان " ألوان طيف " وحي سنواتي الخمس الأخيرة يزيد عن أربعمائة قطعة، منها القصيدة تبلغ أبياتها المائتين! ومنها الرباعية في بيتين، وفي هذا الديوان مختارات، موضوعاتها أفانين متباينة متلاقية، نبات مختلف ألوانه يسقى من ماء واحد، ولعلها تبرزني كما أنا، وتنقذني من شبهة النفاق، وسمة الصوفية، التي أكبرها نقية تقية، ولكنني لا أستحقها!! هذا الديوان أضاميم شوك وزهر، من نتاج شطرمن العمر، جزء يسير، ولكنه قد يكفي، لإظهار ملامح شاعر، والتعريف بإنسان إنسان، إنه أثارة من شعري المسطور".(7)

" من من أصحاب العقول والقلوب لا يعرف الأميري عمر؟

من من الشعراء والنقاد والأدباء، لا يعرف صاحب الدواوين الثلاثين التي تحكي قصة الشاعرية المتألقة في سبحات روحه وقد صاغت من حاملها شاعراً ذواقاً، جميل الوجه واليد واللسان، جميل المحيا، ويحب الجمال ويهيم فيه... فكان مثلاً حياً لذوق رفيع وخلق تسامى حتى صار مضرب المثل مدى الحياة المريرة التي ملأها شاعرنا رحمه الله بألوان زاهية في ذكريات حبيبة ضمخت حيوات أصدقائه ومعارفه وتلاميذه بأشذاء روحية لا تبلى على الزمان،(...) وعندما سألته عن صحته يقول الدكتور عبدالله الطنطاوي في آخر مكالمة هاتفية في مهاجره في الهرهورة المغربية، أجاب:

ماذا يهمك من صحة رجل أكل عمره؟ إسأل عن صحة أحوال المسلمين، فالمسلمون مرضى وأحوالهم بائسة وتعيسة، تدمي القلوب.. هيه أبا البراء... يا بقية بقايا الصالحين والعمالقة في دنيانا... لقد ثويت إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنعم الثواء ... وهكذا أوصيت وكان لك ما أردت... وكان لنا تحت كل نجم، قبر حبيب نبكيه، في زمن لا يجوز فيه البكاء..."(8).

إنه فيض غامر من الشاعرية، والرؤى المستوحاة من نبع الإسلام، تمتزج في قصائده صوفية الحب بقيم الإسلام وقضاياه، واستجلاء المواقف لاستنهاض العقيدة، مع رصيد نابض بالإحساس لكل ما يستجد في ساحة الأوطان واستشراف المستقبل الذي تتطلع إليه الأمة، في الحرية والكرامة (9) ، كان موغلاً في التفاؤل والأمل رغم كبر سنه، رحمه الله رحمة واسعة، كان موغلاً في الاهتمام بقضايا الإسلام والمسلمين، كنت أقرأ في محيّاه كتاباً يمتد في ذاكرة القرن العشرين، أي روح حمل ذلك الجسد الطاعن في الإصرار؟! إصرار النقاء والطهر رغم انغراس العفونة في تفاصيل حياتنا العربية المريرة؟! أي نفس شعت في تلك الانحناءة الأبوية؟! أية طاقة كان يحملها ذلك الاهتمام بقضايا الأمة الإسلامية؟!(10). كان الأميري رحمه الله فارساً ورائداً طموحاً في ميدانه، شديد الغيرة على الأدب والثقافة الإسلاميين، فناناً مرهف الحس والوجدان، ومربياً ومرشداً لكثير من الكتاب والأدباء داخل المغرب الأقصى حيث استقر منذ ثلاثين عاماً وخارجه"(11). ثم إنه يستحق بحق صفة شاعر الإنسانية المؤمنة وأمير الشعراء الإسلاميين للنصف الثاني من القرن العشرين قاطبة، الذي يوافق أمير الشعراء في النصف الأول، وهو محمد إقبال في أقصى شرق العالم الإسلامي(12).

إن الشاعر عمر بهاء الدين الأميري يرحمه الله استطاع أن يوفق بين المضمونات الإسلامية الإنسانية، وبين الجماليات الفنية، كما استطاع أن يتبنى من الناحية الفنية يقول الدكتور جابر قميحة :

ما أسميه بالرومانسية الروحية، وأعني بها الانطلاق بالنفس والروح والخيال في أعماق الذات البشرية وأعماق الشخصية المسلمة وأعماق ذاته في المناجيات والروحيات.

فإذاً، نحن أمام خيال ابتكاري لا يضرب في مجالات الشرود والانطلاق المغرق، ولكنه جعل في النفس الإنسانية والمسلمة، أفقاً أوسع من آفاق الطبيعة، فتشعر أنك أمام عوالم بلا حدود، متسعة، مترامية، لا عالم واحد ذي نطاق محدد، واستطاع الأميري أن يمزج الحقيقة الإسلامية بالجمال الوجداني والانفعال الصادق في عجينة واحدة، وهو بمسلكه هذا، يعد

دفاعاً عملياً عن الشعر الإسلامي المتهم بالجفافية الفكرية على حساب الجمالية الفنية، وعمر بهاء الدين الأميري زيادة على ذلك متفرد بجانب آخر، لم ينتبه إليه أحد* وهو تقديمه النثري لكثير من قصائده، فالذي لم يدرس عروضاً قد يعتقد أن هذا التقديم النثري داخل في صلب القصيدة يقول الدكتور جابر قميحة :

وأنا أرى أنه إذا أصر دعاة (قصيدة النثر) على ادعائهم، لكانت مقدمات عمر بهاء الأميري لقصائده هي المثال الحي لقصيدة النثر.(13).

يا لها من سلاسة! ويضيف الأميري رحمه الله:

" مضت شهور أربعون، والديوان جاثم حيث كان، في ترقب من يصنع له لوحات تتلاقى وبعض صوره وأخيلته، وجاءت لوحات، لا أدري ماذا أقول عنها؟ تشكلات الغيوم أوضح منها!! لو جعلنا معاني الشعر دخاناً وأحلنا روحه من آفاق وأعماق إلى أخلاق!!(14) وصوره من أبعاد وامتداد إلى رماد! ثم جئنا بالريح ملونة تمزج هذا بذا خبط عشواء، لكانت اللوحة الخالدة للعبقرية الفذة، على أن الأمر في التصوير أهون منه في التفكير، فما هي إلا مجاجات على ورقة، من ريشة "رسام" مختلفة الألوان والقوام، يسيل بعضها على بعض، في عبث سريع، حتى ينتهي الأمر، ويفرض " ذوق العصر" هذا الهذيان السائل، والهراء الملون، آية من آيات الفن، لك أن تسميه "تجريدياً" أو "سريالياً"، أو أن تبتدع له شكلاً "عشوائياً" وتدعوه "عنقائياً"! أما إذا أردت إبداعاً منطلقاً من روائع الرسم، وفنه العريق، فيقول " المجددون":

لا ليس من فن العصر، تصوير الرقائق والدقائق، هذا جمود!!

ألا رحم الله الكيلاني(15) ، إنهم المجددونات!(16) وكم لهم من نظراء في الشعراء، يرون من "رجعية" الأدب أن يقيموا وزناً ل " وزن"! أو يقفوا عند " قافية"!!!(17).

ولابد أن نقيد هذا الكلام نظراً لأن المسألة تدور حول قضايا ثلاث: الوضوح والغموض والإبهام: ولك أن ترحب بالوضوح التام شريطة أن يحضر الجانب الفني حضوراً من الأهمية بمكان، لأنه عصب الفن والأدب. أما الغموض، فالفهم يبقى ضربة لازم، حتى إذا شرحنا المتن أوفى على تبليغ رسالته بعبارات ووسائط فنية وأدبية فيها زخم. وأما الإبهام فلا نملك إلاّ رفضه ما دام طلاسم غير ذات حلول في الحال والمآل. كما نقبل الجمال المجرد أحياناً وإلاّ فهل نفهم صوت العصفور؟! وهل نقرأ ألوان الطاووس؟! والوردة؟! لكن ذلك في القراءة الاعتيادية بطبيعة الحال!.

ألا ما أطيب وأصدق ما قال في الأميري، العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي(18):

" أخي أبا البراء: إن تاريخ الأدب العربي الإسلامي سيحفظ لك إن شاء الله وهو أمين ما أسديت إليه من يد بديوان شعرك الأول " مع الله " ، وما أتبعته بديوان شعر " ألوان طيف " ، وقد وجدت في شعرك دائماً لذة ومتعة وسعادة مالا أجده في غيره من الشعر الجديد، وهو والحق يقال نفحات من الإيمان، وقبسات من نور القرآن، وصدق العاطفة، ورقة الشعور، وتصور دقيق لهواجس النفس وخلجات الفكر، وكم تمنيت أن لو كنت معك في محراب دعائك، وفي لحظات ابتهالاتك وأنت:

مع الله في سبحات الفكر.

مع الله في لمحات البصر.

مع الله في زفرات الحشا.

مع الله في نبضات البهر.

مع الله في رعشات الهوى.

مع الله في الخلجات الأخر...

أخي: إنني لم أتعود المجاملة ولا أحسن صنعتها ولا أعرف أصنافها وآدابها، إنما الشيء الوحيد الذي عرفته في حياتي هو أن الإخلاص لله لا يموت، والذي يذكر الله فى خلواته وهمساته لن يضيعه الله، فأنت وقد خصك الله بمواهب جماعها

الإخلاص للمولى جل وعلا، وشعرك المتدفق على لسانك آيات من رحمة الله عليك؛ وتلك الرياحين التي أنعم الله بها عليك سوف تعبق بها الأجواء الروحية إلى زمن طويل.

شكر الله لك يا أبا البراء، وتقبل منك صالح الأعمال.(19).

❁ ❁ ❁

هوامش:

(1) عمر بهاء الدين الأميري، ديوان شعر " ألوان طيف " بغير طبعة أو تاريخ ص:7.

(2) أبو الأحرار الوزير اليمني الشاعر الشهيد القاضي محمد محمود الزبيري، الداعية إلى الإسلام، ومؤسس حزب الله، نفس المعطيات السابقة: معجم الديوان ص: 444.

(3) نفسه من ص: 14إلى 18.

(4) نفسه من ص:20 21.

(5) من مراكز الاصطياف في شمال سوريا.

(6) منطقة اصطياف في محافظة "أدلب" بسورية.

(7) نفس المعطيات السالفة(من ص:22إلى 26).

(8) جريدة الراية المغربية ع 23 ص: 16، دمعة على الأميري بقلم الدكتور عبدالله الطنطاوي .(بتصرف).

(9) ملحق العلم/ الفكر الإسلامي س1ع30 الجمعة 4 ذي القعدة 1412 ص: 8 والأخيرة.

(10) بتصرف من استهلال الحوار الذي أجراه محمد إقبال عروي مع شاعر الإنسانية المؤمنة عمر بهاء الدين الأميري رحمه الله/ الملحق الثقافي لجريدة الإصلاح المغربية ع 20 ص: 2 أنظر مجلد الإصلاح س 87 88 1989.

(11) مجلة العالم اللندنية ع 438، بتاريخ 3 محرم 1413 ص: 35.

(12) جريدة الراية ع 22 ص: 16 بتاريخ 15 ذي القعدة 1412.

(إنا على فراقك يا بهاء الدين لمحزونون) للأستاذ أبي زيد المقرىء الإدريسي.

(*) عفو الدكتور جابر قميحة!

(13) الدكتور جابر قميحة / مصر (جريدة المسلمون) س8 ع 394 ص: 8 الجمعة 23 صفر الخير 1413 ، خلال حوار أجراه معه في القاهرة محمد سيد بركة بتصرف.

أما(قصيدة النثر) فهي في الحقيقة تحمل عناصر فنائها فيها للتناقض السافر ثم كيف يجتمع الشعر بالنثر؟! وبهذا الصدد يقول الأميري رحمه الله:

" إن إعطاء القيمة للأثر الأدبي لا ينبغي أن تكون مرهونة بهذا الشكل أو ذاك، حتى لا نقحم على الشعر إنتاجاً جديداً، هو يبتعد حسب فهمي من جمالية الشعر وخصائصه. لماذا؟!

خذ مقامك الأدبي بجوهر ما تعطي، سواء كنت شاعراً أو ناثراً، فكم من ناثر قيمة نثره أكثر من قيمة كثير من دواوين الشعر(!!).

(14) الخلق وجمعه أخلاق: الشيء البالي.

(15) الأديب العربي كامل الكيلاني، وكانت له ندوة في القاهرة يغشاها الأدباء والعلماء من مختلف البلاد.

(16) كان العالم المحقق الكبير" عبدالعزيز الميمني الراجكوتي" يباحث الأستاذ" الكيلاني" في أمر لغوي، فسأله:

وماذا يقول المجددون؟

فأجابه ساخراً:

نحن ندعوهم " المجددونات" ، فلم ينتبه الراجكوتي للنكتة بادىء الأمر، وتساءل: وما هذه الصيغة في الجموع؟

فقال الأستاذ الكيلاني:

" إنها جمع مخنث سالم " ، وتضاحكا...

(17) أنظر الهامش رقم(1) من ص: 29 إلى 33.

(18) رياحين الجنة لعمر بهاء الدين الأميري شعر الطفولة والأطفال، من مقدمة الشيخ الندوي، دار البشير عمان الأردن مطبوعات رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ط :1 سنة 1412 1992(ص: 7 8 9) بتصرف يسير.

(19) أنظر مقالنا (فصل من عالم الأميري) بمجلة الأدب الإسلامي العدد الرابع(بتصرف).